نهر النيل
(شخصية عريقة)

نهر النيل: نشأته واستخدام مياهه فى الماضى والمستقبل

كتاب ألفه الدكتور رشدى سعيد.. وكأنه عدة كتب

أو، قل، إن النيل عدة أنهار.. عدة أنهار حقيقة لا مجازا

فالنيل فى مصر عالم فسيح.. فكما يقول المؤلف.

* الأنيال الأولى بمصر
* نهر ما قبل النيل (البرينيل)
* النيل الحديث
* ونهرا العصر الحجرى القديم العارضان وما توسطهما من نهر النيونيل الأول
* النيل الحديث
* نيل العصر الحجرى القديم المتوسط المتقلب
* نهر آخر العصر الحجرى القديم المتوسط وأول العصر الحجرى القديم المتأخر الموسميان.
* النيل الحديث (النيونيل)

وينتقل المؤلف إلى الجزء الثانى أو هيدرولوجية تهز النيل.. ايقاع النهر والطقوس المتعلقة به.

فإذا أتى إلى الجزء الثالث وقف طويلا عند (استخدامات مياه النيل) ثم يخلص فى الجزء الرابع إلى استخدامات مياه النيل فى المستقبل أو كما يقول مستقبل استخدامات مياه النيل.

لقد شغل نهر النيل الناس كما يقول المؤلف.

obeikandi.com

لقد شغل الدنيا كلها حتى الغرباء وقعوا من زخره الزاخر فى بهران من الحماسة السكرى يهللون ويكبرون.. فكتب «وليم ولكوكس» و «:ريج» كتابهما الشهير «الرى المصرى» الذى صدر سنة ١٨٨٧ ولما يمض على الاحتلال الانجليزى خمس سنوات وأعيد إصداره سنة ١٩١٣.. وبدأ «هيرست» موسوعة نهر النيل وشاركه فيها «فيليبس» و «بلاك» و «سميكه» والتى أصدرتها وزارة الأشغال المصرية أوائل القرن العشرين أما المصريون فقد كتب على باشا مبارك «الخطط التوفيقية» الذى يقع فى عشرين مجلدا.. وقد صدرت الخطط سنة ١٨٩٩ ثم أمين سامى باشا الذى كتب «تقويم النيل» ويقع هذا الكتاب فى ستة مجلدات وصدر سنة ١٩١٥ وسنة ١٩٣٠.. وكتب عمر طوين عن النيل كتابين صدرا بالفرنسية فى سنتى ١٩٢٢ و ١٩٢٥..

أقول: احتل الانجليز مصر واستدارت مصر تكتب عن النيل وهولون من الرد بأسلوب مصر..

إنها مصر التى تستعلى على المحنة فيزول العارض ويبقى الخالد وتتألق مصر.. من جديد.

يقول المؤلف فى مطلع الجزء الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان:

(المستوطنون الأوائل يواجهون نهرا صعب المراس):

لا يعرف على وجه التأكيد تاريخ ظهور أول إنسان على أرض مصر. فقد يعود ذلك إلى أكثر من مليون سنة مضت. وتظهر أقدم الأدوات الحجرية التى صنعها الإنسان وسط حصباء «أرمنت» بجوار مدينة الأقصر.. وهذه الحصباء هى التى جرفتها سيول إحدى الفترات المطيرة الموغلة فى القدم من المناطق المجاورة ورسبتها فى مصبات الكثير من الأودية التى تصب فى وادى النيل.. وكانت هذه الفترة المطيرة قد تخللت فترة الجفاف الشديد الذى لحق بأرض مصر فى أوائل عصر البليستوسين منذ حوالى مليون سنة. وتقدير عمر هذه الفترة على هذا النحو هو من باب التخمين الذيكى ليس إلا.. **فالشاهد أن حصباء أرمنت أقدم بكثير من أقدم الرواسب التى يعرف تاريخها..**

من يصدق؟ ادوات حجرية صنعها الإنسان المصرى بجوار مدينة الأقصر منذ حوالى مليون سنة؟

عشت عمرى كله أرفض مقولة «حضارة سبعة آلاف سنة» إنها سبعة آلاف سنة هى عمر الكتابة المصرية فى قمة تألقها أو كما يسميها «ديورانت» فى قصة الحضارة: «اللغة الملوكية»

يقول المؤلف عن الإنسان المصرى القديم إنه كان (يستخدم حجر الظران فى صناعة أدواته التى كان يشكلها فى ورش، وجد الكثير منها بجوار مكان وجود هذا الحجر. وأقدم هذه الورش هى التى وجدت فى النوبة وهى من الحقبة الحجرية القديمة المبكرة. وقد كثرت هذه الورش فى الحقبة الحجرية القديمة المتوسطة.. كما أصبح تشكيل الحجر ذاته أكثر تعقيدا. وقد اكتشف مؤخرا بجوار مدينة قنا محجر قديم لاستخراج حجر الظران الذى كان يستخدم فى هذه الورش، لعله أقدم محجر عرف فى التاريخ.. إذ يعود تاريخه إلى أكثر من ٣٠,٠٠٠ سنة.

ويدل حجم المجر وطرق الاستخراج المتقدمة التى أدت إلى الاستغلال الكامل لكل مادة الظران فيه وحجم النفايات الخارجة منه والتى كومت فى أكوام ضخمة بجوار الحفرة على أن سكان هذه المنطقة فى ذلك العصر القديم لابد أنهم كانوا كثيرى العدد.

ويقول:

وجد فى بير طرفاوى بجنوب الصحراء الغربية بقايا مجزر قديم من حقبة العصر الحجرى القديم المتوسط- أى منذ ٢٠٠,٠٠٠ مائتى ألف سنة- فى إحدى مستوطنات هذا المكان.. وبالمجزر بقايا عظام وحيد القرن الأبيض والجاموس البرى (أحد الأنواع التى انقرضت) وغزال الداما الكبير وغزال الروفيفورميس الصغير وحمار الوحش وغيرها من حيوانات السفانا التى تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن صحارى مصر خلال هذا العصر القديم كانت كثيرة الأمطار التى وصل متوسطها إلى حوالى ٥٠٠ خمسمائة ملليمتر فى العام كما كانت الصحراء مليئة بالشجيرات والحشائش.)

(كان النهر موسميا تصله أمطار المرتفعات الاثيوبية فى دفعات كبيرة. ومفاجئة خلال فصل الصيف.. كما لم تكن تصله المياه فى فصل الشتاء فينكمش وقتها إلى برك صغيرة ومتناثرة.. كانت الأوقات صعبة وكان الجو باردا وجافا والنهر غير منتظم والعيش فى ظل هذه الظروف كان شاقا فقد كان الأمر يتطلب من الإنسان أن يتعايش مع نهر يأتى فى فيضان جارف فى لحظة زمنية ثم ينقطع عن المجىء لشهور طوال.

وشهد مكان وادى النيل أوقاتا عصيبة فى فترة الفيضانات العالية التى استمرت لحوالى ٥٠٠ خمسمائة سنة فيما بين ١٢٥٠٠ - ١٢٠٠٠ سنة قبل الآن.

وهذه جاءت نتيجة التغيرات الكبيرة التى حدثت فى مناخ هضبة البحيرات الاستوائية والتى سببت زيادة كمية المياه التى وصلت إلى مصر فى تلك الفترة زيادة **جعلت العيش في وادي النيل صعبا إن لم يكن مستحيلا.**

***

أقول ومع هذا تجاوب الإنسان المصرى مع **المكان والزمان** كان عليه الكثير ليفعله

وأدرك هذا منذ البداية بذكاء فطرى وفطرة ملهمة.

بدأ

قبل التاريخ

وكانت رحلة طويلة مثيرة

فيها أكثر من عقدة

وأكثر من بطل

وتعددت الفصول ومازالت أحداثها تجرى وتؤثر فى العالم كله.

الآن كالأمس

وإلى آخر الزمان

إن رحلة مصر الطويلة بدأت قبل بناء الأهرام بألوف السنين حولت مصر المستنقعات وأحراس البردى إلى جنة خضراء.. وهو منجز حضارى رائع لا يقل عن بناء الأهرام فى دلالته على طاقة القدرة والإرادة والبناء.. ولكن مصر من كثرة معجزاتها، غدت المعجزات فيها بلا علاقة.. بلا مفاجأة.

ويرددون بعد هذا «مصر هبة النيل» ثلاث كلمات تتردد كثيرا على الألسنة، وعلى صفحات الكتب منذ قالها هيرودوت.

لقد أعطى النيل لمصر الكثير.. وعلمها الكثير ولكن مصر هبة النيل وهبة الإنسان المصرى وثمرة جهوده الموصولة الطموح. فهناك أنهار أخرى لم تقم فى وديانها ما قام فى مصر من حضارة متفوقة متألقة باقية على الأيام.. أقولها وأرددها.

لقد استجاب الإنسان المصرى لصرامة التحدى.. تلك الاستجابة التى أضفت على تاريخ مصر وشخصيتها دلالتها الحقيقية حتى قال الدارسون فى إكبار وفى مقدمتهم «توينبى»

(اذن البيئة ليست السبب الوحيد الذى تتولد عنه الحضارة)

إنها همة الإنسان المصرى

لست وحدى فى هذا القول

فإن ما يقرأ كتاب Histoire de la nation Egyptienne الذى كتبه Gabril Han، يسمعه يقول:

هنا.. فى هذه العزلة المنيعة، وعلى ضفاف النيل، عرف القوم أساليب المعيشة المتحضرة قبل أن ينجاب الظلام عن أمم الأرض طرا.. عرفوا الزراعة والصيد والتجارة والحرف على اختلافها.. وصور لنا مصورهم من هذه النواحى المعاشية صورا بارزة على جدران المقابر تمثل زرعا وصيدا ونسجا وتجارة ومهنا مختلفة.. وهندس مهندسهم المبانى المدنية والدينية فجاءت غاية فى الروعة والقوة.. وصدر عن العقل المصرى الأول أقدم ما عرف العالم من الحكمة والطب والكيمياء العملية.. وإليه يعزى أختراع أقدم أنواع الكتابات.

وبمثل هذا الإيقاع كتب Savary عن مصر والنيل Lettres sur L'Egypte

ولندع الكتب وكاتبيها ونعيش مع مصر والنيل فى الرحلة الطويلة التى سافر فيها القلب المصرى..

نستطيع فى المتحف المصرى أن نتابع هذه الرحلة خطوة خطوة..

هنا فى المتحف، لا فى الكتب، نستطيع أن نرى تاريخ مصر وهو ينسج خيطا خيطا.. هذا التاريخ يبدأ من قاعة العصر الحجرى حيث نجد الأوانى الجميلة المتعددة دليل تعدد وجوه الاستعمال وهى:

دلالة حضارية..

ونجد وسائل الحياة اليومية مصنوعة في دقة وجمال

في ذلك الزمن السحيق.. نجد إبرة الخياطة.. ونجد الودع يستعمل نقودا.. ونجد الخرز ألوانا وعقودا.. نجد وسائل الزينة.. نجد المشط ينتهي أعلاه على شكل غزالة!

اذن ارتفعت مصر في هذا العصر المعرق في القدم، المغرق في البعد، على الضرورة بل تجاوزتها إلى مرحلة الترف والتأنق الحضاري.

هذا في العصر الحجري.

وسبق هذا بالطبع ألوف السنين في عملية تحضير وسعي.

إن السعي الحضاري المحسوب لمصر أو الذي يجب أن يحسب لها يبلغ عشرات الألوف من السنين..

لقد رأينا كيف بدأت رحلة مصر الحضارية في الصحراء قبل العصر الحجري حين كانت الصحراء مسقط الأمطار.. ثم انتقل العمار إلى الوادي بعد أن جفت الصحراء...

على هذا المكان، نشأت، قبل مينا، ملحمة تاريخية من الجهاد الحضاري رائعة.. لقد تضافر النيل والإنسان المصري على إخراج هذه الملحمة.. لطالما رددت هذا المعنى في أكثر من كتاب من كتبي لأنه يسكن في داخلي.. في أعماقي.. جوايا

فهناك دالات أنهار ولكن الأنهار ودالاتها في غير مصر لم تخلق الحضارة بمستوى هذا الخلق..

وأهم من هذا لم تتواصل فيها الحضارة بغير انقطاع كما حدث في مصر.

حضر النيل، المسرح، للحضارة..

ووعى الإنسان المصري الدرس ومضمونه، قيمتان كبيرتان:

* **الكل في واحد** أى التعاون

* **العمل** أى الكفاح لدرء خطر الفيضان

هنا فى هذا المكان جمع الإنسان المصرى نفسه فى وحدة حضارية مستمعا إلى نداء النيل الذى جمع نفسه من أنهار..

ومن هنا ندرك سر مصر الذى يكمن فى **الادارة.. والتوحد** الادارة التى ضبطت النهر، والتوحد الذى صنع منا أمة تزرع وتصنع وتبنى وتخلق الحضارة.

ولهذا تتأخر مصر عندما تتفرق أو تسوء الادارة فيها.

واستمع المصرى إلى نداء النيل مرة أخرى حين رآه يكون الدلتا عاما بعد عام.. كان أمامه البحر فأخذ يرسب فيه، وفى إصرار.. فيتراجع البحر كل عام حتى وقف عند موقعه الحالى.

واستوعب المصرى الدرس ووعاه

وأصبح العمل الدءوب، علامة عليه..

وأصبح الصبر، قدرة لديه.

والإيمان الراسخ رصيد فى قلبه.. وكنز مكنون.

وهذا سر امتصاصه للمحن

وقهره للصعب

واستعلائه على الأحداث

ووثوقه بالله

ويقينه فى الصر.. فى النهاية

***

أعود إلى الكتاب.. اعذرونى.. لقد استرسلت طويلا.. إنها

مصر والنيل

يقرر المؤلف أنه قبل أن يوشك عصر ما قبل الأسرات على الانتهاء، كانت حضارة مصر النهرية قد استكملت كل منظوماتها: الملك.. **وعقيدة الخلود والعواصم ذات المعابد والقصور والمدافن الملكية الهائلة.**

ويقول: كان غمر الأراضى خلال الفيضان يعرضها لتغيير أبعادها وساحاتها.. فكثيرا ما كانت تجرف منها أجزاء أو يضاف إليها طرح جديد.. ولذا فقد أتقن المصريون فن **المساحة** منذ أقدم الأزمنة.

وطبقا لرواية ديودورس فإن سفنا يقودها ملاحون مهرة كانت تخرج من عند مقياس منف لتسبق الفيضان لتنبه السكان ليستعدوا لمواجهة أخطاره.. كما كانت هناك أبراج للمراقبة على طول النيل لإرسال الإشارات الخاصة بأحوال الفيضان..

ماذا أقول وماذا أدع.. قد تغنى الإشارات والصفحات فى كتب كثيرة ولكن اذا كان الكتاب عن النيل فهو يقرأ كله لأنه حديث عن عمر مصر.. وعمر مصر الدقائق مشغولة فيه بحساب دقيق ووثيق فهى أجل من الاجتزاء وأغلى من التفريط ولن نفرط ما عاشت مصر وجرى النيل.